فى إحدى الصورتين تحرص البلاغة على السورة العامة ، وفى الصورة الثانية حرص الذوق الحديث على صورة الملول الذى يتقلب ويتبدل ويغدر عن شيمة وديدن لا عن هياج فاتك ، فى إحدى الصيغتين صورة عنترية تصول وتجول وتنادى المبارزين المناجزين ، وفى الصيغة الثانية صورة القدر فى أبديته الطويلة يلعب بالخلائق لعب السائم الضجر فى غير اكتراث ولا تعمد ، وقد ظن الأستاذ العقاد أن هذه الصيغة أجدر بالبارودى فى شيخوخته ، وأن الصيغة الثانية ذات الضجيج أجدر به فى شبابه وأول ابتلائه للشعر . ولايعنينا هذا الجانب شبه التاريخى ، وإنما الذى يعنينا أن نصل وقفة العقاد بما نرى أنه تحول فى الفهم عن البلاغة وآثارها ، وكأن البلاغة كانت نوعا من غناء للدهر على نحو ماقال البارودى فى إحدى الروايتين « أخو فتكات بالكرم اسمه الدهر » فالبلاغة العربية تقترب من تفهم الشعور على أنه صدمة أصابت جدارا » أو ضربة وقعت على حجر .

هذه قعقعة التهويل التى يسميها العقاد تارة باسم الصنعة ، وتارة باسم الكذب الذى يجافى الطبع والفطرة الأصلية . يقول العقاد : إذا سمعت قوله « أخو فتكات بالكرام » بدهك بما يشغلك عن الكناية ، فلا تعود تبالى أكان اسم صاحب هذه الفتكات الدهر أم غير الدهر ، ولكنك إذا سمعت « ملول من الأيام » انسرحت أمامك ساحة الحوادث ، فرأيت أطوارها طورا بعد طور ، ولمحت صورة الزمن القديم يشرف على كل هذا أشراف اللاعب الملول ، ويجىء ذلك بعد قوله « أقاموا زمانا ثم بدد شملهم » فيكون أنسب للتراخى فى التقلب ، وأقرب الى ماجرت به العادة من غير الظروف .

وماكان لذوق غارق فى أثر البلاغة أن ينحو منحى العقاد فى تأويله ، منحى العقاد منحى مثقف من غير شك ، والانتقال من الفتك الى الملالة انتقال واسع ، فالملالة أدل على التأمل والممارسة الفطنة واجتماع مايشبه الاضداد ، وحضور جانب من روح الخير التى لاتحس ، وهى على كل حال أدل على وجه من وجوه البصيرة لا الجهالة العمياء التى تشبه الآلة الصماء فى الرواية الثانية .

(٥)

إن وقفة قصيرة من هذا القبيل أدل على ما قلناه غير مرة ، فقد عنى العقاد بالشعر الردىء أكثر من أى رائد آخر ، أو عنى بتصحيح الفهم ، وكانت عنايته فى الحقيقة